٦ - أميرة التنوير

(الأميرة نازلي فاضل)

فقر الفكر و فكر الفقر ، ليس عنوانًا فقط لكتاب مهم من كتب الأديب يوسف إدريس و لكنه عرض لمرض نرجو ألا يكون مزمنًا في الجسد المصري و حتى نستطيع التخلص من مرض فقر العقل و ظلام الإبداع ، لابد أن نتذكر رموز التنوير و منهم أميرة التنوير التي تناساها التاريخ و خلد فقط من ساهمت هي في فتح الطريق لهم و مد الجسور بينهم وبين الشعب ...

أحد هؤلاء هو قاسم أمين محرر المرأة و الذي لا يعرف الكثيرون أن من كانت وراء تغيير رأيه ووجهة نظره في المرأة ، فتحول من عدو المرأة إلى محرر المرأة ! الأميرة نازلي فاضل .

نموذج نسائي فريد في تاريخ مصر المعاصر ، بل في تاريخ الشرق كله ، فلم يعرف الشرق امرأة مثلها استطاعت أن تخترق الحواجز الاجتماعية والسياسية و

الثقافية التي فرضتها تقاليد ذلك العصر عليها كامرأة و كأميرة من أميرات الأسرة المالكة لكنها تغلبت على هذه الحواجز بما استطاعت تحصيله من علم وثقافة ، و بما أسهمت به من صحوة في مسيرة الثقافة و التنوير في مطلع القرن العشرين ، فكانت لها بصمة واضحة على فكر و ثقافة الكثير من أعلام مصر في زمنها .

الأميرة نازلي فاضل التي ننفض تراب النسيان و نقترب أكثر من شخصيتها ، و لنبدأ حكاية أميرتنا بحكاية أبيها الذي كان له تأثير قوى في شخصيتها ومسار حياتها .

والدها هو الأمير مصطفى بهجت فاضل بن إبراهيم باشا ابن محمد على الكبير مؤسس الأسرة العلوية ، ولد الأمير مصطفى فاضل في ٢٢ فبراير ١٨٣٠م بعد ولادة أخيه غير الشقيق إسماعيل بأربعين يومًا ، و قد فاز إسماعيل بعرش مصر و بعدها غيّر نظام وراثة العرش ليتولى ولاية العهد ابنه محمد توفيق بدلًا من أخيه مصطفى فاضل الذي انتقل للإقامة الدائمة في الخارج ما بين أوروبا و الآستانة (تركيا) ، بعد شعوره بالظلم الذي لم يزده إلا اعتزازًا و ثقة بنفسه ، تلك الثقة التي ورثتها عنه ابنته نازلي التي صاحبته في إقامته بالخارج ، و هي في الثالثة عشرة من عمرها ، فأرادت دومًا أن تكون شخصية ذات تأثير في كل من حولها.

عشر سنوات قضتها الأميرة نازلي بالخارج فنشأت تحمل مزيجًا من العادات الشرقية و من الثقافة الغربية التي نهلت منها في باريس حيث كانت تقيم مع زوجها خليل باشا شريف الذي عين سفيرًا للدولة العثمانية في باريس التي شاعت فيه آنذاك فكرة الصالونات الأدبية التي تضم صفوة المفكرين و الأدباء ، تطرح فيها موضوعات مختلفة تتصل بالفكر والفن والسياسة ، تأثرت الأميرة نازلي بتلك الصالونات و دورها في تفعيل الحركة الثقافية .

في أوائل الثمانينيات من القرن التاسع عشر عادت الأميرة نازلي فاضل إلى القاهرة ، سيدة مثقفة تتحدث العربية التركية و الإنجليزية و الفرنسية والألمانية و الإيطالية ، و أقامت أول صالون ثقافي في تاريخ مصر المعاصر ..

و لم يقتصر دورها على إقامة الصالون و الاشتراك فيه ، و إنما كان لها تأثير إيجابي علي التطور الفكري لرواده .

كان للأميرة دور بارز في حياة ثلاثة من رواد الصالون ، أولهم كان الإمام الشيخ محمد عبده الذي بدأت علاقتها به بعد عودته من المنفي عام ١٨٨٨م ، دعته الأميرة لحضور صالونها و شجعته على تعلم اللغة الفرنسية و دراسة الأدب الفرنسي ، وقدم لها الشيخ اثنين من

تلاميـذه فـكان لهـا أثـر عميـق في حيـاة كل منهمـا ..

الأول كان سـعد زغلـول الـذي توثقـت صلتـه بالأمـيرة فوكلتـه عنهـا كمحـام ، ورشـحته زوجًـا لصفيـة هـانم ابنـة مصطفـى باشـا فهمـى رئيـس الـوزراء كمـا رشـحته بقـوة ليصبـح وزيـرًا ، فـكان سـعد زغلـول أول وزيـر مصـري في وزارة المعـارف أو وزارة التربيـة والتعليـم .

قاسـم أمـين هـو تلميـذ محمـد عبـده الثانـي الـذي قدمـه للأمـيرة نازلـي ، كان عائـدًا مـن باريـس سـاخطًا علـى المـرأة الشـرقية ، ومـن المدهـش أن أول مقـالات كتبهـا قاسـم أمـين كانـت هجومًـا قاسـيًا علـى المـرأة المصريـة نشـرت بجريـدة المؤيـد ، دعـا فيهـا المـرأة أن تلـزم بيتهـا و تمتنـع عـن أي دور في الحيـاة العامـة.

غضبـت الأمـيرة نازلـي مـن مقـالات قاسـم أمـين ، وطلبـت مـن الشـيخ محمـد عبـده مقابلتـه لتحـاوره فيمـا كتـب، وبالفعـل وجـد قاسـم أمـين نفسـه أمـام صـورة رائعـة للمـرأة المصريـة المثقفـة، تعـرض آراءهـا بثقـة و قـدرة علـى إثباتهـا بالمنطـق ، تتفاعـل مـع ضيـوف صالونهـا في حـوارات رفيعـة تديرهـا بعـدة لغـات تتحدثهـا بطلاقـة .

انبهر قاسم أمين بالأميرة نازلي كنموذج راقٍ لما يمكن أن تصل إليه المرأة المصرية ، فاقتنع بأن تأخر المرأة جاء نتيجة ظروف اجتماعية فُرضت عليها ، ونادى بضرورة تحطيم المرأة لقيودها ، لتلحق بما فاتها ، فجاء كتاباه (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) دعوة لذلك .

والفضل يرجع للأميرة نازلي فاضل التي رفضت قيود المجتمع لتقدم أروع الأمثلة لما يمكن أن تصل إليه المرأة الشرقية من عقلية ثرية و أفق رحب ، لذلك استحقت لقب .. أميرة التنوير .

obeikandl.com